

من روائع أدب الغرب

الإنسان

L'HOMME

لشاعر الحب والجمال لامرئيين
للأديب حسين تفكجي

— ١ —

« أرسل إليك يا صاحبة السمو ، قبل أن أضع رأسي على
الوسادة ، الكتاب الصغير الذي تفضلت بإعارة إياه النارحة ،
ويكفيك أن تمرقني أنني لم أنم وبقيت ساهراً ، حتى لاحت
تباشير الصباح ، وخرجت طيور الفجر من أعشاشها ، لأنهم قراءته
ولأطلع على ما احتواه بين جلدتيه ، من روائع للمعاني ، وجيل
القول . سوف لا أنبأ لك بشدة تأثيره في أذواق الجمهور من القراء
إذ يكفي أن أجمل من نفسي ذلك الشعب الذي سيطلع على هذا
الكتاب لأقول : إن هناك رجلاً ، وسيفشل الكثير من صفحائنا »
« من كتاب تأليان إلى الأميرة تالون »

— ٢ —

« وعقب مدة قليلة أثار هذا الكتاب فضول الطبقات الراقية
في الروسية . فإن النيكولات تجردلن وتسابقن لاقتناء نسخة منه ؛
فالتى خانها الحظ ولم تحظ باقتناء هذه النسخة ، كانت تكتب في
دقتها مقاطع من أجل الأسماء التي قالها لامرئيين ، وتجبر نفسها
على حفظ أشياء منها . فالسيد من اقتنى كتاباً من (التأملات)
إذ كان يحرص عليه كن يحرص على مفتاح النجاح وطريق السعادة
« من مذكرات أتون شي »

— ٣ —

يا لجرعة لامرئيين الفظيعة ! فهو سبب نصف جنودنا قنساؤنا
يردن أن يكن أمثال إلهير

« نك أصابنا للبرد وأزمتنا للفرش أياً طويلاً ، لأننا
أردنا أن نتمثل شعره ، فسرنا على شاطئ البحيرة الزرقاء ، تأمل
جمال القمر في السماء ، وبدائع أمواج الماء ، وروائع الطبيعة على
النبراء ، في الليالي الباردة التي كانت تحمل إلينا معها نسيم
الليالي الفارة التي قطعها لامرئيين ، بينا عوامل الأمراض
تنازعنا قوانا وتسلط على أجسامنا »

« إن لامرئيين واللورد بيرون ، أدارا رؤوس نساء الجيل
الحاضر ، ولفتا أنظارهن إلى عظمة الوجود والحب »
« الكوشش داش »

— ٤ —

أيها الشاعر الباكي ، أيها الناظم الشاكي ، أيها المؤلف الغائب
عن عيني ، إنك رمز الجبن والخوف
« فما أشبهك بورقة خريف جففت يد القدر خضرتها ،
وجردتها من رائع نضرتها ، تناقلها نسبات النهار الباردة بين وديان
غير معروف مداها ، وجبال غير مفهوم منتهها ، تحط دون أن
تترف أين ، وترقب النسيم ليرفعها من مكانها إلى حيث لا تعرف
إلى أين !

ما ذا يحوي شمرك من جمال ؟
ما الذي يضم بين آياته من نضرة ؟
لا شيء !
ما معنى الشاعر المختصر ؟

قصيدة بأس من الحياة وخوف من التنازل من أجل الوجود .
أيها الحيوان الباغم ، لست أول تأمخ على أريكة خضراء ، فقد
سبقك كثيرون ، ولكنك كنت موفقاً في التعبير عما تكنه
جوارحك « مورييس ألب »

آراء متناقضة ، سطرناها أقلام كتاب متباينين ، لتقدير
مزايا ومساوي شاعر ، فهم من تأمل في قطعة الخلود ، وعرف
في شمره معنى الحياة ، وفهم بين آياته مفهوم الحقيقة ؛ ومنهم من
حمل على هذا الشاعر الباكي الذي لا يرى فجر الحياة إلا من وراء
منظار أسود ، ولا يتأمل وجه البسيطة إلا بالنسيج والبكاء . فكل
ما يقع تحت عينيه يرمز إلى ذلك الحب الذي قضى وحل اليأس
مكانه في سويداء القواد

نحن لم نأت بهذه الآراء لتوازن بينها ، ولتميز بين حسنها
وببيحها ، بل أننا لانها تعبر عن موجة الأفكار التي اجتاحت
عصره ، وعن الأثر الذي أحدثه كتابه الصغير « التأملات »
الذي أصدره الشاعر ، فنترجم قطعة من شمره سماها « الإنسان »
وأهداها إلى اللورد بيرون للشاعر الانكليزي الذي قتل في حرب
استقلال اليونان ، والذي كان لامرئيين معجياً بشعره ، مأخوذاً
بألفاظه إذ قال : اللورد بيرون في نظري هو أكبر شاعر

فإن أصوات اليأس أجل أغانيك
الأم هدفك ، والرجل خيبتك

سبرت بمينك كالشيطان غور الهوة طياتها نفسك ، غمرت
بمبدأ عن الآله والأضواء ، بسد أن ودعت أملاً راحلاً .
فأنت مثله اليوم تسيطر على الأرجاء المظلمة ، والأصقاع الممتعة .
فاجعل عبقريتك التي لا تقهر تملو بلحن جهنمي ، وتشد أنشودة
الظفر تحت ظلال عرش إبليس الشر

— ٣ —

ولكن أية فائدة تجني من نضال النهاية المحتمة ؟

بأي شيء يدفع العقل المنيد القدر ؟

ليس ! كالعين ، إلا أفق محدود !

فلا تسدد جيل أنظارك إلى أبعد من هذا المدى ، ولا تقدح
زناد فكرك دون نفع وسدى ، فتجد كل شيء منا يفر . للكل
ينطق كالشمع . للكل يعنى من الوجود . ولكن كيف ؟
ولم ؟ من يعرف ؟ فإن يديه القادرتين قبضتا على الوجود والبشرية ،
ونشرتا في حقولنا النبار ، وجعلتا الأضواء والظلام والأوار .
فهو يعرف ما يعمل . وهذا يكفي فالكون تحت إمرته ويده ،
وليس لنا سوي اليوم الذي نعيش فيه

إن جريمتنا هي أننا بشر ، فينا فضول المعرفة .

ولكن الجهل والخضوع هما قانونا هذا الوجود .

يرون ! إن هذه الكلمات قاسية عليك .

ولكن لم التراجع أمام الحقيقة ؟

إن شرفك أمام الآله هو أنك صوغ يديه ، فاشعر وأخضع
في سجنك المقدس .

أنت ذرة محمولة ، توج في هذا النظام المالي ، فتم إرادته
بطاعتك ، لأنك مخلوق بإرادته ، وحياتك تمجد هذا الوجود
الذي تموت فيه ، حيث مصيرك .

أواه بمبدأ عرب الاهتمام . قبل ذلك الرسف الذي تحاول
تخطيطه ، واهبط من صفوف الآلهة التي تذهب جراً أنك ، كالكل
جيد ، والكل جيل ، والكل عظيم في مكانه . ففي ناظر
خالق الوجود نحوى الحشرة طالا بنفسها .

— ٤ —

ولكنك تقول إن هذا القانون بشر عداك ، ولا يبدو

في نظرك من هوى غريب ، وشرك نصب ليكبو العقل في كل
خطوة بخطوها .

عرف الطبيعة في زمننا الحاضر . إن من شعره ما يسكرني ، وإن
من يباه ما يسحرنى ، إذ وجدت في أقواله خيوط أمل تربط
أصواتنا بجيش في صدري ، وتنفور في سويدائي »

ولكن بالرغم من أن تفاؤل لاصتين يقابله شك يرون ،
فإن الشاعر لم يجد مانعاً من أن يرسل هديته إلى تقيضه في أقواله
لأنه أراد أن يجره إلى أفكار أقل شيطانية من أفكاره الأولى
— فهل أصاب أو أخطأ ؟ لا نعرف ! بل نحكم عليه بعد قراءة الشعر
الذي أرسله إلى الشاعر الشاك

الانسان

— ١ —

أنت الذي يجهل العالم اسمك الحقيقي ، أيها الروح الخلق الشاك .
مهما كنت يا يرون شيطاناً أو ملاكاً ، عبقرية ميمونة أو مشؤومة ،
فإن أغانيك تصوب إلى نفسي بريق الأمل ، وتحملي إلى روعي
دمة الحل

أعشق في أشعارك الخالدة أنفاسها الغريبة كما أعشق ضوضاء
المصافة المحتدمة ، الذي يمتزج بهدير المصاعقة ويبار مع أصوات
الشلالات المنحدرة

إلى الليل تأوى ، وإلى الرعب تلجأ

ما أشبهك بجبار الفضاء ، وملك الصحاري ! بالنسر الذي
يكبر السهول ولا يهوى سوى الصخور الوعرة ، التي ألبستها
يد الله ثوبها الناصع ، والتي فتنت تحت ضربات الصواعق
المتوالية . يجلد لده على شواطئ غطيت بمطام البواخر النارقة ،
وملئت بأشلاء السفن المخطمة . ويذهب عنه حزنه مرأى الحقول
المخضبة بدماء الحركة . بينها البلبل الفريد ، ينشد أسقامه ، وينثي
آلامه ، وهو يبني عشه على شواطئ السواقي الجاريات ، بين
الحقول الزاهرات

يجب النسر لده فوق قمم الأنوس ، التي تخترقها القدرى
الحادة كأسننة الرياح ، فيشق فضاءها بجناحيه ، تاركاً ظله يرسم
فروق الموات للفاخرة فاها . وهناك وحيداً يصيخ لمبيحات
الفرسة المتمايلة التي تحيط به أعضاؤها المختلفة ، فوق صخور
تقطر زواياها دماً . وعندما تحتمد رياح المصافة بنام مسروراً
فروق بقاياها

— ٢ —

ما أشبهك بنسر السماء هذا يا يرون !

لنعترف بذلك بإيرون دون أن نحاكمه .

ما أشبهني بك . فعلى انتم في الظلمات ، ولكن ليس على أن أشرح لك حقيقة العالم ، فالذي أبدع الوجود يلقنك الدرس الوافي .

كنت كلما سبرت عمق الحياة ضمت في فياقها .

وفي هذه الدنيا لم أر سوى الألم يرتبط بالألم ، والنهار يتبع سير النهار ، والبقاء بلازم ظل الشقاء ، والإنسان السخيف بطبيعته ، اللامتناهي بتدوره ، إله زل من عليائه ، يفكر في سمائه .

حرم مجده القديم ، فاحتفظ من مقدراته الضائعة بالذكرى وغور ميوله السحيق يتنأى عن عظمته المقلبة .

إذا علا أو سفل ، فالإنسان . عميق .

مقيد في سجن الخواص ، على هذه الأرض . أسير يشمر بأن له قلباً ولد يتنشق نسيم الحرية .
فيا له تمسكاً يتعلل بالأمانى .

ويريد سير غور العالم ، بتأطيره الضميريين

ويود أن يمشق دائماً لولا أن ما يحب سربيع الفناء .

كل فان يشبه طريد جنة عدن ، عندما طرده الإله من الجنة السماوية ، فلح بنظره الحدود المشؤومة التي تحيط به ، نجس باكياً على الأبواب المغلقة دونه . سمع من بريد ، من السكن الآسعي زفرة الحب الخالدة ، ونفثات السمادة ، وأغاني اللاتكة المقدسة ، تصل إلى أحضان الإله لتجعد فضائله ، فهبط من السماء ، ثم أطلق نظراته من عنائها ، فوقت على مصيره المولم ...

— ٥ —

يا لبؤس من يسمع أناشيد طالم بهواه وهو ناء في منى الحياة

السحيق !

يرى الطبيعة تناضل خمر الخلود التي ارتشفها

بتأرجح كالحلم ، عندما يرى الحقيقة ضيقة في مكانها ، والمستحيل واسماً في فضائه ، والروح مثقلاً بالبول لا يجد مأوى يعرف منه حباً وعلوماً أبداً . والرجل في محيط الجبال والنور ، ظان ، لا يروى غله ، فيسكر بالأحلام ، كي تمذب رقدة ، ويمود إلى نفسه إذا ما فاجأته يقظته

— ٦ —

وا أسفاه ! كانت آخرتك ؟ وما هي مقدراتي ؟

فقد شربت مثلك ، كأس الشك مترعة

وعيناي كمينيك ، فتحتنا الأبحان دون أن تنظرا !

نسباً قتشت عن كلمة الوجود . طلبت أسبابه من الطبيعة . سألت آخرته من كل مخلوق . واستفهمت من القلم حتى ألم .

فرجع طرفي كليلاً ، ونظري حسيراً ، قبل رؤية قرار هوة العالم كسفت غطاء الأزمان التي هرعت ، وأرجمت الأجيال التي

صرت ، ماراً بالبحار ، مررداً أقوال الفلاسفة ، ولكن العالم بق أمامي ، كما هو أمام علماء اللاهوت « كتاباً معلقاً »

ولأنين كنه الطبيعة كنت أفر بروحي إلى أحضانها

وخيل إلى أني أجد معنى لهذه اللثة النامضة ، فدرست

القوانين التي تدور حبا ، أجرام السموات ، فكان نيوتن يعتمد عيني في سهولها النيرة . تأملت بقايا وفات المواهل ، ورأيت رومة

تندثر في ظلمات قبورها المقدسة ، والقديسين وقد أقضت مضاجعهم . وزنت بيدي وفات الأبطال ، وطلبت منه معنى الخلود

الذي يأمله كل البشر ، ولكن لم أجد في هذا للتيار الغاني معنى الخلود

ما ذا أقول ؟

لازمت سرير الموتى ، لتفتش نظراتي عن معناه في السيون

المختصرة

وعلى هذه الذرى التي توجهها الثلوج مدى الدهر

وفوق هذه الأمواج التي خطتها عواصف الرياح

ناديت دون مجيب

اقتحمت عثار الأحجار وظننت كالمرافة أن الطبيعة بمشاهدتها

النادرة ستري إلينا بإحدى عجائبها ، فأحبيت أن أغر نفسي في

هذه الرغبات الصامتة التي تنوأل

ولكني ، في سكوتي وهياجي ، قتشت عبداً عن كنه هذا السر

العظيم ، فرأيت في كل مكان إلها لا أقمه . رأيت الشرأثر الخير

دون خبرة ، ودون هدف يسيران كالصدفة ، رأيت في كل مكان

الشر يختار ، فجذفت بمحق السماء دون معرفة ، قرن صوتي ولاحق

السماء كالصدي المدوي ، ولكنه لم يهرب القدر ، ولم يفضب المصير

حسين نكلمي

« البقية في العدد القادم »